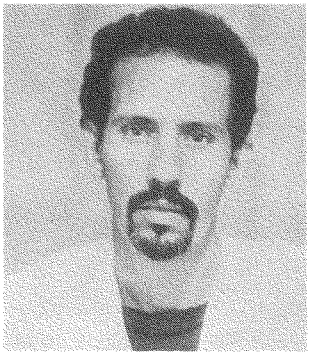

البنية الاجتماعية في رواية «القبر المجهول أو الأصول»

محمد الأمين ولد أخطانا

لم يحظ هذا العمل الروائي الذي نحن بصدد إبداء ملاحظات حول البنية الاجتماعية فيه بالدراسة النقدية الكافية ـ حتى الآن ـ رغم أنه يشكل ـ في نظرنا ـ محاولة جادة لوضع الرواية الموريتانية في مسار يسمح لها أن تتمتع بالخصوصية، ولأنه يدمج بشكل فعال معطيات التاريخ وفرضياته بهموم الحاضر، ويهتم بتفعيل هذه الأحداث من أجل تجاوز هذه الهموم.

ومن هذا المنطلق سنحاول أن نتتبع من خلال هذه الرواية التفاعل الاجتماعي الذي يشكل مرحلة «تَبَنْيِنْ» امتازت بفعالية نشطة لكنها لم تنجب في النهاية غير البنية ذاتها. وقبل أن نتناول بالتفصيل خصوصية هذه البنية الثلاثية الأبعاد يلزمنا أن نرفع لبساً يتعلق بالقبر المجهول وبذلك الفصل اليتيم الذي خُصّص لوصفه: إن القبر المسنم الذي ينذر له الرعاة أعواد الحطب وتتحدث عنه فاطمة العرافة ضاربة الرمل ـ الكزانة ـ ليس أكثر من مكياج ميتولوجي لم يكن له أي تفعيل داخل البنية، إلا ما يثيره من تخييل جمعي يعبر عن الطبيعة الوعيية للجماعة التي أنتجته. وهامش التخيل هذا لم يكن أكثر من إحدى وسائل للجماعة للتعامل مع صورة غيبية غائمة لا تستند إلى معطى ثابت، (قبر لأحد الجن الشهداء في معركة بدر.. أو لأحد الأنبياء..) وبالتالي لا يمكن تصديقها أو تكذيبها، فما هو الحال لـ«لكزانه» (ضاربة الرمل) فاطمة العرافة؟ وللتوضيح فإن التفاعل بين بنيات الرواية الثلاث ـ حسان الزوايا ـ زناقة ـ تحكمت فيه الوظائف الخاصة بكل مجموعة، فبقدر فاعلية السلاح يسود حسان، وبقدر رسوخ العلم تتمتّع الزوايا بالقوة الاعتبارية، كما أن انتشار المواشي لدى زناقة يحدد قيمة المغرم، وبالتالي أهمية الحماية. وإبراز البعد الميتولوجي إذن إنما كان إظهار الزيفة، والبركة التي خلق منها الزوايا، رادعاً لم توفق قط في إظهار فعاليتها، وإن ظل الجميع يهابها لما ترتبط به من أبعاد غيبية.

بعد هذا التمهيد سنستعرض أهم الملاحظات التي يتصدرها ما يهمنا من أحداث الرواية.

تبدأ الرواية «في الزمن الموريتاني القديم» وهو يعني بحر القرن الثامن عشر. أما مسرح أحداثها فهو أرض «أرقيطه» وهي تقع بين صحراء المرية وادفر وتكانت وأدرار، وقد اختيرت المنطقة لأن السكان هجروها منذ انتهاء أحداث الرواية أي منذ نهاية القرن الثامن عشر.

تتحرك في الرواية ثلاث مجموعات هي قبيلة أولاد أسويلم «وهم عرب محاربون أشداء» لا يلهيهم غير الصراع والاقتتال والولغ في الدماء. المجموعة الثانية هي زوايا أولاد عبد الرحمن، وهي قبيلة تحمل تراثاً علمياً ولها بركة هي سلاحها في بلاد «السيبه»، أما المجموعة الثالثة فهي أولاد أحميدان وهي قبيلة من «زناقة» المستضعفين، يدفعون المغرم من أموالهم مقابل الحماية.

وتعيش البنية حرباً ضروساً بين قبيلة من داخلها هي قبيلة أولاد أسويلم وقبيلة أولاد اعميره، وهي حرب تشبه حرب البسوس لطولها ويشتد أوار الصراع مبرزاً المُثُل العسكرية، والوسائل الاقتصادية والعلاقات بين الفاعلة حتى تنتهي هذه الحرب الضروس بهزيمة مفجعة لأولاد اسويلم وبصعود زناقة الذين

غدروا بالعرب المنتصرين وأبادوهم عن بكرة أبيهم في تطور يصعب تفسيره لمن لم يتتبع التطور النمطي لشخصية ديلول زعيم هذه الجماعة.

إن حكمة ديلول ورجاحة عقله قادته إلى استنتاج أساسي هو «أن كل من هب ودب على هذه الأرض لا يملك سلاحاً أو علماً فهو مستضعف، مظلوم» وتعود البنية في تطور درامي إلى سابق عهدها فيتحول زناقة إلى عرب يملكون السلاح، ويندمج أولاد اسويلم في بنية الزوايا صحبة مجموعة من أولاد عبد الرحمن، كما تصبح مجموعة أخرى من الزوايا هجروا العلم زناقة ينضاف إليهم زناقة أولاد أعميرة المنهزمين. ويدق الطبول وأناشيد (فاغو) الحماسية.

تنتهي الرواية بما تحمل من دلالات ومعانٍ نجملها في السمات التالية:

أولاً: التمايز والتوافق

أول ما يثير الانتباه في هذه البنية ذات الطبيعة القبلية التمايزية أنها بنية توافقية لا يكاد جزء منها يستغني عن الجزء الآخر. فالزوايا ـ البنية الأكثر تعقيداً وتعقداً ـ يمثلون نمطاً فوقياً أو جزءاً من البنية الفوقية بامتلاكهم السلطة المعرفية، أو المرجعية الفقهية، وإن بدت هذه الصورة باهتة في زوايا أولاد عبد الرحمن الذين بدأوا يهجرون العلم ويعتمدون البركة، فإنها مشرقة في زوايا علمية أخرى تمت الإشارة إليها في رحلة سلامي ولد الهادي الذي أصبح شيخ محظرة في العهد الجديد ـ عهد صديقه القديم ـ ديلول. هذه السلطة مدعمة بغلاف أسطوري يتجلى في ادّعاء الزوايا امتلاك قوة خارقة تمكنهم من درء المخاطر الغيبية، وطرد الجن. ولعل التصالح اللافت للانتباه بين النص الشرعي وقوى الباطن أو في عالم الظاهر والباطن كان السلاح الأوحد لدى الزوايا، وهو تصالح أمثلة معطيات اجتماعية وضرورات ملحة بعد أن جرد هؤلاء من سلاحهم وكسرت شوكتهم.

«حسّان» من جهتهم يمثلون الطرف الآخر من هذه البنية، فبقوة سلاحهم امتلكوا السيطرة. إنهم يمثلون التعبير الأوضح عن مشروع عبّر عنه «شكرود»: زعيمهم، فإما التفوق المطلق أو الفناء (رئيس أو قبر). بقي زناقة وجل المستضعفين الذين شكلوا بنية تحتية لمجتمع (أرقيطه). وواضح إن هذه البيئة عرفت مشروع ثورة تجلّى في صراع أيديولوجي لم يستطع التعبير عن نفسه إلا بانقلاب جبان، لكنه كان فعالاً في توطيد سلطة المستضعفين، غير أنهم كانوا أشد ظلماً وتعسفاً، وهو ما يعني ارتكاس الثورة وعودة البنية لسابق عهدها. ورغم هذا التوافق فإن هناك تمايزاً تجلّى في:

أ ـ الزوايا والمشروع المؤجل

لقد كان للزوايا مشروعهم لاحتواء البنيات الأخرى وهو مشروع تجلّى في مجموعة من المظاهر:

أ ـ إعادة تأسيس تجلت في اجتلاب أنساب تعود إلى أسر الصحابة والتابعين وإلى الدوحة النبوية نفسها، وهي وسيلة بدت فاعلة في منافسة حسّان الذين يفخرون بأصول عربية لا غبار عليها، ومن خلال هذه الأصول المكتسبة والتي تمت بعد تعرب سريع أملته ظروف سيطرة الثقافة العربية الإسلامية من جهة، وسيطرة الناطقين بها؛ استطاع الزوايا أن يجدوا لأنفسهم وجهاً للتنافس المشروع مع حسان، بل وجهاً للسيادة عليهم في الشرق والغرب من الدوحة النبوية. وبالتالي مشروعية السيادة.

المظهر الثاني تجلى في احتكار مطلق للمعرفة والمرجعية القانونية ـ سلطة التقاضي ـ والفتوى وهو احتكار يبرزه ما لهذه السلطة من أهمية في أي مجتمع من المجتمعات.

أما المظهر الثالث فقد جسده هؤلاء في تأجيج الصراع بين قبائل الشوكة وجعلها تقدم على انتحار جماعي، ويتم ذلك بطرق ماكرة وذكية تجعل العدوّ يقدم على حتفه بنفسه، ويجسد المظهر الأخير الدعوة الصريحة إلى الجهاد ضد حسان، وهو جهاد برز في نطاق نقاش فقهي حول ما إذا كان حسان مسلمين أم خارج الملة باغتصابهم للأموال وهتكهم للأعراض، والراجح في هذا النقاش هو الرأي الأخير. وهذا المشروع المؤجل إنما هو حنين لم يستطع التعبير عن نفسه ـ إلى تجارب الدولة التي مثّلها المرابطون وزوايا من قبل (شرباب).

ب ـ حسان: الانتحار الجماعي:

كانت بنية حسان ـ في الرواية ـ البنية التي مارست انتحاراً جماعياً، إنها بنية فقدت صوابها وأصبحت بحكم الآليات التي تتحكم في عقلها الجمعي بنية متآكلة لا تملك من وسائل الاستمرار غير ممارسة العنف الأعمى. فحين يكون السلام والعافية يتذمر هؤلاء ويوجدون وسيلة للتقاتل (اتقاميس). إن مثل الشجاعة والإقدام والإحساس بتفاهة الحياة تجعل السلام مستحيلاً والحياة لا تمثل هدفاً.

هذا الانتحار الجماعي رغم السيادة لا يمكن أن يعود إلى أي شيء غير تآكلها وتنافي مُثُلها مع النواميس الاجتماعية المألوفة، فهي

بانتحارها تبحث عن بنية بديلة.

ج ـ زناقة: الانقلاب وانتكاس الثورة:

جسّد ديلول ـ وهو شخصية لها دلالتها في الموروث الشعبي ـ تطوراً وعيياً أوضح الأوجه الثورية لبنية زناقة. فقد كانت سخريته من فاطمة العرافة ـ وهي شخصية أخرى لها نفس الدلالة ـ وتنبؤاتها، واحتجاجاته على ممارسات حسان وتعبيره عن أهمية امتلاك السلاح وتأديبه للنمادي، كان لكل هذه التطورات تأثير واضح على تطور مفهوم الثورة على الواقع، حتى أوجدت ظروفاً طارئة الفرصة لانقلاب أجهض الثورة لكنه وحده المتاح فتحول ديلول من زناقيّ مسالم إلى وحش يقتل حتى الأطفال.

إنه استحالة تجاوز البيئة لذاتها، وبالتالي فإن سيادة أولاد احميدان ليس أكثر من تجسيد آخر لعربان جدد يغتصبون ويمارسون السطو بدهاء يتنافى مع المثل السائدة. لقد ارتكست الثورة ونجحت الانقلابية لأن حدود الوعي الجمعي محكومة بمفاهيم يصعب تجاوزها.

ثانياً: الأصول وظيفية وليست عرقية:

ترتبط هذه الإشكالية بهمّين: أحدهما تاريخي يعود إلى تصور المجتمع القبلي القديم لتوزيع وظائفه انطلاقاً من علاقات إنتاج تحدد وصورة واعية أو غير مقصودة وظيفة كل شريحة اجتماعية، فكل من يملك السلاح ويستطيع المحافظة عليه فهو عربي وينطبق المقال على بقية الشرائح، فمن حمل راية الثقافة العالمة فهو من الزوايا، ومن لم يستطع أن يحمل لا السلاح ولا راية العلم فهو زناقي، الأمر الذي يعني أن علاقات الإنتاج هي علاقة عبودية. أما الهمّ الثاني فهو إجابة عن إشكالية الأصول ذاتها، وهي إشكالية طرحت في الثلاثينيات من هذا القرن حيث بدأت القبائل تبحث بنفسها عن إعادة تأسيس وتعيد نشر أصولها، ويتمّ هذا داخل مجتمع الدولة الحديثة، وبالتشكيك في الأصول ذاتها عدم جدوائية هذا المسعى، فالانتماء إلى هذه القبيلة العربية أو هذا الصحابي أو الشخصية الإسلامية لا يعتبر شيئاً لأن الجميع ينتمون إلى ثقافة عربية إسلامية، ومن الأجدى التعلق بأصل معروف يتجلى في ثقافة عالمة بدل التعلّق بأصول لا يمكن تبريرها ولا جدوى من تتبّعها ونشرها.

استخلاصات:

يمكن أن نستخلص: أن «القبر المجهول» أو «الأصول» من وجهة اجتماعية إنما كان محاولة لتجاوز إشكالية الحاضر المتمثّل في تخلخل كبير على مستوى البنية الوعيية للمثقف الموريتاني في ظل الدولة الحديثة. وهو تخلخل تجلّى في نزوع هذا الوعي إلى التراوح بين الإيمان ببنية قبلية مغلقة، ودولة ما زال مفهومها يصارع من أجل البقاء، وهو صراع تحسمه الرواية ضمنا لصالح الأخيرة، بدليل أن الأولى بنية منغلقة لا تستطيع التعايش مع مجتمع توافقي.

ـ إن إعادة الأصول إلى وظائف تواضع عليها المجتمع وإحلال الانتماء الحضاري محل الانتماء العرقي، يعني أن البحث عن الأصول عبث لا طائل من ورائه، هذا إذا كانت الأصول حقيقية فبالأحرى إن كانت غير ذلك.

ـ تجاوز الرواية للخطاب الثوري العروبي الفج والذي سعى بشكل حثيث ـ خاصة في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات ـ إلى إثبات عروبة موريتانيا والدفاع عن هويتها العربية بربطها بالأسلوب المشرقي في الخطاب السياسي، وفي الشعر والرواية، والهوية تبعد عن مجال المناقشة إذ لا ضرورة لإثبات ما هو واقع أصلاً، لذلك تغوص في خصوصية الخطاب الشعبي لتحوله إلى مادة أدبية مترجمة البنى الحسانية إلى لغة فصيحة، يسهل تداولها دون أن يتهاوى النص إلى المستوى العامي.

وأخيراً قد يشعر متتبع هذه السطور أن هنالك بنية اجتماعية بكاملها ثمّ إهمالها وهي (النمادي). وإهمالنا لها لا يعود إلى أنها لم تشكل إحدى البنيات الدالة ـ على الأقل ـ في الجانب الذي يهمنا، لأنها بنية هروبية، فالنمادي نمط بدائي أو مقبرة يلجأ إليها الأحياء الذين استحال عليهم العيش داخل بنيات المجتمع البدوي المضطرب. وبالتالي لا تدخل في إطار الصراع الحيوي الذي أنجب بنيات يمكن أن نجد فيها نوعاً من تاريخ الدولة وتأصيلها.